

SIATS Journals

Journal of Arabic Language for Specialized Research

(JALSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk

e-ISSN: 2289-8468



مجلة اللغة العربية للأبحاث التخصصية

المجلد 2، العدد 3، تشرين الأول / أكتوبر 2016

e-ISSN: 2289-8468

THE SIGNIFICANCE AND ITS DEVELOPMENT IN AL-KHAFAJI'S RETINUE ON THE INTERPRETATION OF THE AL-BAYDAWI- AN INDUCTIVE STUDY

أصلُ الدَّلالة وتطوُّرها في حاشية الخفاجيِّ على تفسير البيضاويِّ

دراسةٌ استقرائيَّةٌ

مُهنَّد عمر رنَّة

جامعة البعث / سوريا

2016 – 1438



ARTICLE INFO

Article history:
Received 20/9/2016
Received in revised form 25/9/2016
Accepted 5/10/2016
Available online 15/10/2016

Keywords:
Arabic, Semantic Development, al-Khfaji.

ABSTRACT

Semantically, language is a transform, amendment and modification in meaning construction and invention. Since the revelation of the Holy Quran, the acquiring of new meanings in expression of language terms is developing by some connotations particularly dealt with different level of having meaning approaches and inventions. To analyze the above theory, the research discovers this phenomenon by reveal some developments of semantic expression in Quranic terminology`s approaches via al-Khafaji's comments on al-Baydawi's Explanation of Holy Quran.



مُلخَّص

اللغة دلاليًّا تحوُّل وتعديل في صوغ المعنى وابتكاره, ومنذ نزول القرآن الكريم اكتسبت ألفاظ اللغة العربية معاني تعبيرية جديدة تتناسب مع المستوى المختلف الذي تُعبِّر عنه, ولتحليل هذه النظرية يتحرَّى البحث هذه الظاهرة التي تكشف عن بعض ملامح التطور الدلالي في الألفاظ القرآنية, وذلك من خلال حاشية الخفاجيِّ على تفسير البيضاويِّ الموسومة بـ(عناية القاضي وكفاية الراضي).

مُقدّمة:

يُعَدُّ القرآن الكريم أنموذجًا جديدًا لهذه اللغة الكريمة، إذ إنَّ تطوُّر اللغة العربية في هذا الأنموذج جَعَلَها خليقةً بأن تكون مُعربةُ عن دِيْنٍ جديد وحضارة جديدة، وقد بُهِرَ العرب بالقرآن، وبالتغيير الذي أضفاه على النظم البياني، فضلاً عن أثَرِهِ في تغيير العادات والتقاليد، ثم فَرَضَتْ علومه على المسلمين أن يعمدوا إليه يتعقَّبون ألفاظه ويُفسِّرونها، وكانت الحاجة إلى معرفة لُغَتِهِ وغريبه سببًا لخوضهم في بحوث لغوية عن المعنى والدلالة، فالقرآن الكريم . بأساليبه في التعبير وفنونه في القول . خَلَّصَ اللغة من الوحشيّ والغريب، وهَذَّبَ ألفاظها من التنافر والتعقيد، ومن ثم عَمَدَ العرب إلى الكشف عن خباياه وكنوزه، مما طوَّر لديهم ذائقة لغوية مُتأصِّلة، فكان من ثمار هذا الجهد رَصْدُ المخزون الحضاري في التراث اللغوي للقرآن، وبدأ التصنيف في هذا المخزون يتحدَّد، واتَّسع التفسير, وتعدَّدت مناهج التأويل، فكانت دراسة القرآن ومعاني ألفاظه والنظر في إعجازه الشغل الشاغل للمسلمين، وعَدَّها أبو عمرو بن العلاء /149هـ/ هدفًا لكلِّ مُسلِم؛ إذ قدَّم عِلْمُ التفسير أمثلة للُّغويات التطبيقية في تحليل النصوص، فاللغة كما ذَكَرَ ابنُ جني /392هـ/: "أصوات يُعبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"؛[1] لذا عُدَّتِ المعرفة اللغوية من أهم الأدوات التي استعان بها العلماء في فَهْمِ النصوص القرآنية.

وقد حاول العلماء في العصر الحديث تقعيد التغيرات التي تُصيب الدلالة وتصنيفها على أُسُسٍ منطقية، وكان من أهمّ ما شَغَلَ علماء اللغة موضوعُ تغيُّر الدلالة وتطوُّرها وصُوَرُهُما وأسباب حدوثهما؛[2] إذ يُشبِّه بَعْضُ اللغويين تغيُّر الدلالة وتطوُّرها عن طريق اكتساب الكلمة معاني جديدة بالشجرة تُنبت فروعًا جديدة، وهذه الفروع بدورها تُنبت فروعًا أصغر، والفروع الجديدة قد تُخفي الفروع القديمة وتقضي عليها، ، ولكن هذا لا يحدث دائمًا، فهناك كثير من المعاني السابقة قد ازدهرت وانتشرت لقرون رَغْمَ نُمُوِّ المعاني اللاحقة, يقول د. إبراهيم أنيس: "وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ذلك الفوج الزاخر من الألفاظ القديمة الصورة الجديدة الدلالة... وغير ذلك من آلاف الألفاظ التي أحياها الناس, أو اشتقُّوها، وخلعوا عليها دلالات جديدة تطلَّبتها حياتهم الجديدة".[3]

---

1 **الخصائص**، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، (ج1: ص33).

2 يُنظر: **علم الدلالة والمعجم العربي**، د. عبد القادر أبو شريفة، وحسين لافي، وداود غطاشة، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، /1409-1989/, (ص235).

3 **دلالة الألفاظ**، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، /1984/, (ص146، 147).

ويرى د. مسعود البوبو أن التأصيل اللغوي يبحث في الأصول الأولى التي أُخِذَت منها ألفاظ اللغة، كالأصول اللاتينية لكلمة فرنسية أو إيطالية، وكالأصول السامية لكمات عربية أو حبشية؛ للتثبت من نسبة تلك الألفاظ إلى أصولها بالتحقيق العلمي، ثم اكتسب المصطلح مدلولاً عامًّا بعدما اتَّسع؛ ليتناول الأصول الدخيلة أيًّا كان مصدرها,[1] والصلة بين المعنى والدلالة وطيدة جدًّا، فالمعنى هو الموضوع الأساس لعلم الدلالة الذي يُعرِّفه العلماء بأنه العلم الذي يدرس المعنى,[2] فالدلالة "هي المعنى، ودلالة أيِّ لَفْظٍ هي ما ينصرف إليه هذا اللفظ في الذهن من معنى مُدرَك أو محسوس، والتلازم بين الكلمة ودلالتها أمرٌ لا بُدَّ منه في اللغة؛ ليتمَّ التفاهم بين الناس".[3]

وظاهرة التطور لا تقتصر على لغة من دون أُخرى، بل هي ظاهرة عامَّة تكاد تشمل اللغات جميعها، وسَبَبُ ذلك يعود إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل التطور.

ولما كان القرآن الكريم ـ الذي يُمثِّل الذروة البيانية في الموروث البلاغي عند العرب ـ يبتعد عن النمط الجاهلي في ألفاظه ويستقلُّ بمدلولاته؛ فقد أصبح المحورَ الرئيسَ للبحث الدلالي؛ إذ يُعَدُّ نصًّا عربيًّا ذا طابع إعجازيٍّ؛ لذا أفاض الباحثون الحديثَ في جوانب العظمة البلاغية والسُّمُوِّ الأدبي في أسلوبه، فشغلت قضية الإعجاز القرآني العلماء، فأفردوا لها مُؤلَّفات مُستقِلَّة تبحث في الإعجاز وأسبابه، وتبيان مزايا التنوُّع في أساليب القرآن والكشف عن الأسرار اللغوية فيه، وحاول اللغويون والبلاغيون أن يُخضعوا تغيُّرات المعنى لشيء من التنظيم والتقعيد، فذَهَبَ معظمهم إلى أن للتطور الدلالي مظاهر ثلاثة هي: تعميمُ الدلالة؛ أو ما يُسمَّى (توسيع المعنى)، وتخصيصُ الدلالة؛ أو ما يُعرف بـ(تضييق المعنى)، وتغييرُ مجال استعمال الكلمة؛ أو ما يُسمَّى (انتقال الدلالة).[4]

---

1 يُنظر: **أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج**، د. مسعود البوبو، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، /1982/, (ص224).

2 يُنظر: علم الدلالة والمعجم العربي 65.

3 **دور الكلمة في اللغة**، ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال بشر، مكتبة الشباب، مصر، (ص153).

4 يُنظر: دور الكلمة في اللغة 164، ودلالة الألفاظ 154.

تمتلك لُغتنا العربية فيضًا زاخرًا من الألفاظ المتنوعة التي تخضع كغيرها من اللغات لقوانين التطور اللغوي والدلالي، وكُتُبُ التفسير أحَقُّ المصنَّفات بأن تحوي الذخيرة اللغوية العربية, وتبحث في غوامضها وأسرارها؛ للكشف عن دقائق لغة القرآن الكريم؛ قال الراغب الأصفهاني/502هـ/: "أوّل ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيقُ الألفاظ المفردة".[1]

وفي حاشيته الموسومة بـ(عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاويّ /685هـ/[2] الموسوم بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)؛ عني الخفاجيُّ /1069هـ/[3] بالمباحث الدلالية في القرآن الكريم تأصيلاً وتطوُّرًا؛ إذ أدرك أن ألفاظه لا تُوفَّ حقَّها شَرْحًا وتقريبًا من أفهام القارئين إلاَّ إذا حُدِّدت أُصولها الأُولى في لُغَة المتكلِّمين بها؛ فعَمَدَ إلى ذلك قاصدًا شَرْحَ غامضها وجلاء معانيها الأصلية والفرعية؛ ممَّا أفضى به إلى أن ذَكَرَ المعاني المتطورة للألفاظ أيًّا كان طريق تطوُّرها؛ وذلك من خلال: تتبُّعِها في مظانِّها من أُمَّات كُتُبِ اللغة, وتحليلِها في دقَّة وتوسُّع يبلغ أحيانًا درجة المعاجم اللغوية، وضَبَطِها بالرسم والحركات والوزن، والوقوفِ عند تطوُّرها التاريخيّ؛ داعمًا ذلك بأدلَّة من القرآن الكريم والحديث النبوي ومأثور كلام العرب شعرًا ونثرًا.

وفيما يأتي بيان ما اتَّبعه الخفاجيُّ من طرائق في حاشيته في أثناء البحث عن أصول الدلالات وتطوُّرها.

---

1 **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، (ج1: ص4).

2 عبد الله بن عمر؛ ناصر الدين البيضاوي, من أعيان الفُرْسِ في عصره, قيل إنه كان إمامًا مُبرَّزًا نظَّارًا خيِّرًا صالحًا مُتعبِّدًا فقيهًا أصوليًّا مُتكلِّمًا مُفسِّرًا مُحدِّثًا أديبًا نحويًّا مُفتيًا قاضيًا عادلاً, وأكثر ما اشتُهر به تفسيره الغني بالمباحث الدلالية، ويُعَدُّ من أجَلِّ التفاسير وأشهرها؛ لِمَا حواه من اختصارات ودُرَرٍ وفوائدَ ونكاتٍ؛ تلقَّفها العلماء, فأكثروا التحشية عليه.

تُنظر ترجمته في: **طبقات الشافعية الكبرى**، السُّبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، مصر، (ج8: ص157)، **وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**, السيوطي, تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، دمشق، ط2، /1399-1979/, (ج 2: ص50، 51)، **والفتح المبين في طبقات الأصوليين**، عبد الله مصطفى المراغي، مطبعة أنصار السنة المحمدية، /1366-1947/, (ج2: ص88).

3 أحمد بن محمد؛ شهاب الدين الخفاجي, من أعلام الدولة العثمانية, قيل إنه كان أديبًا عالمًا في جميع العلوم, ذا تصنيفات سائرة وشهرة ذائعة, قد فاق كلَّ مَنْ تقدَّمه في كلِّ فضيلة، وأتعب مَنْ يجيء بَعْدَهُ, ومما اشتُهر به حاشيته على تفسير البيضاوي, جَمَعَ فيها لُبَّ الأقوال والآراء المنثورة في علوم القرآن والتفسير والقراءات والحديث واللغة والنحو والبلاغة والفقه وأصوله والكلام.

تُنظر ترجمته في: **ريحانة الألبَّا وزهرة الحياة الدنيا**، الخفاجي، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، /1386-1967/, (ج2: ص327–340)، **وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، المحبِّي, المطبعة الوهبية، /1284هـ/, (ج1: ص331–343), **وطبقات المفسرين**, الأدنه وي, تحقيق سليمان صالح الخزي، مكتبة العلوم والحِكَم، المدينة المنورة، ط1، /1417-1997/, (ص415، 416).

أوّلاً.. أصْلُ الدلالة:

عني الخفاجيُّ بتحديد أصول دلالات الألفاظ، وهو في ذلك يتحرّى سبيلين:

فإمَّا أن يذكره من دون أن يُشير إلى تطوُّره؛ ففي قوله I: **[وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]** [البقرة 7]، أشار إلى أصْلَ كلمة (العذاب), فقال: "إنه من قولهم: عَذَّبَ الرَّجُلُ؛ إذا تَرَكَ الأكل والشرب والنوم، فالتعذيب حَمَلَهُ على أن يجوع ويظمأ ويسهر، وحاصله الإمساك، ومنه العَذْبُ لِمَنْعِهِ من العطش[1]".[2]

وفي قوله I: **[فَلا تَعْضُلُوهُنَّ]** [البقرة 232]، ذَكَرَ أنَّ (العضل) أصْلُ معناه الحبسُ والتضييقُ، ومنه: عَضَّلَتِ الدجاجةُ . بتشديد الضاد . إذا لم تُخرج بيضها، وكذا الأُمُّ إذا عسرت ولادتها.[3]

وإمَّا أن يذكره مشفوعًا بمعناه المجازي الأكثر استعمالاً واتِّساعًا؛ ففي قوله I: **[وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ]** [البقرة 15]، قال: "أصْلُ (العمه) عَدَمُ الأمارات في الطُّرُق التي تُنْصَبُ لتدُلَّهم؛ من حجارة وتراب ونحوهما، وهو المنار، ثم تُجُوِّزَ به عن التردُّد والتحيُّر مُطلقًا, وصار هذا حقيقة".

وفي قوله I: **[ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ]** [الأعراف 131]، أشار إلى أنَّ أصْلَ (التَّطيُّر) تفريقُ المال وتطييره بين القوم, فيطير لكلٍّ نصيبُه من خيرٍ أو شرٍّ,[4] ثم غَلَبَ في الشَّرِّ، واحتجَّ بقول لبيد τ /41هـ/ [من الوافر]:[5]

تَطِيْرُ عَدَائِدُ الأشْرَاكِ شَفْعًا ... ووِتْرًا والزَّعَامَةُ لِلغُلامِ

فطائرُهم أي حظُّهم، وما طار إليهم من القضاء والقدر بسبب شُؤمهم عند الله I وما نَزَلَ بهم.[6]

ثانيًا.. تطوُّر الدلالة:

ذَكَرَ الباحث قبلاً أن اللغويين والبلاغيين حاولوا أن يُخضعوا تغيُّرات المعنى لشيء من التنظيم والتقعيد، فذَهَبَ معظمهم إلى أن للتطور الدلالي مظاهر ثلاثة هي: تعميمُ الدلالة؛ أو ما يُسمَّى (توسيع المعنى)، وتخصيصُ الدلالة؛ أو

---

1 يُنظر: المفردات في غريب القرآن /عذب/ 2: 425.

2 الحاشية = **عناية القاضي وكفاية الراضي**، ضبطه عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، /1417-1997/, (ج1: ص459).

3 الحاشية 2: 545.

4 يُنظر: **لسان العرب**, ابن منظور, تحقيق جمعٍ من المحققين، دار المعارف، القاهرة، (/طير/ 2737).

5 **ديوان لبيد بن ربيعة**، حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط1، /1425-2004/, (ص128).

6 الحاشية 4: 353.

ما يُعرف بـ(تضييق المعنى)، وتغييرُ مجال استعمال الكلمة؛ أو ما يُسمَّى (انتقال الدلالة),[1] وهي مظاهر تعرَّض لها الخفاجيُّ في حاشيته؛ إذ لم يكتفِ بأن يشفع الأصل اللغوي بالمعنى المجازي المتطوِّر عنه كما تقدَّم.

أمَّا تعميم الدلالة (توسيع المعنى) فبيَّنه السيوطي /911هـ/ بأنه "ما وُضِعَ في الأصل خاصًّا, ثم استُعمل عامًّا"[(2)]، وسمَّته الدراسات الحديثة (توسيع المعنى),[3] ويرى د. مسعود البوبو أن هذا المظهر كان استجابةً لحاجة وإرضاءً لنزوة؛ أنَّ المعاني كالموادِّ الخام يُفصِّلونها ويصنعونها وفق أهوائهم وعلى غرار ما يُناسبهم ويُرضيهم.[4]

ففي قوله I: **[وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا]** [هود 77]، قال الخفاجيُّ: "(ذرعًا) تمييز، وهو في الأصل مصدرُ: ذَرَعَ البعيرُ بيديه يَذْرَعُ في سَيْرٍ إذا سار ما خَطْوُهُ من الذَّرْع,[5] ثم تُوُسِّع فيه, فوُضِعَ موضع الطاقة والجَهْدِ، فقيل: ضَاقَ ذَرْعُهُ؛ أي طاقتُهُ، وقد وَقَعَ الذِّرَاعُ مَوْقِعَهُ... وذلك أن اليد كما تُجعل مجازًا عن القوة، فالذراع الذي هو من المِرْفَقِ كذلك، فقيل إنه كناية عن ضِيْقِ الصدر", فالمدلول الأصلي لقولهم: ضَاقَ ذَرْعًا، ضِيْقُ خُطُوات البعير حين يُحَمَلُ عليه، ومدلوله الطارئ تبرُّمُ الإنسان من أمْرٍ لا يُطيقه، فتطوُّر المعنى ههنا من خلال تعميم الدلالة.

وفي قوله I: **[رَجْمًا بِالغَيْبِ]** [الكهف 22]، فسَّر الخفاجيُّ (الرَّجم) بأنه قَذْفُ الحجر الذي لا فائدة في قَذْفِهِ ولا يُصيب مَرْمَاهُ، ثم وُضِعَ (الرَّجم) مَوْضِعَ الظَّنِّ وذِكْرِ الأمر من غَيْرِ عِلْمٍ يقينيٍّ واطمئنانِ قَلْبٍ؛ حتى صار حقيقةً عُرفيَّةً فيه,[6] كما قال زهير بن أبي سلمى /13ق.هـ/ [من الطويل]:[7]

ومَـــا الحَـــرْبُ إلاَّ مَـــا عَلِمْـــتُمْ وذُقْـــتُمُ ومَـــا هُـــوَ عَنْهَـــا بِالحَـــدِيْثِ المُـــرَجَّمِ

فذا أصْلُ دلالة (الرَّجم) وما تطوَّر إليه من معنى الظنّ.

---

1 يُنظر: دور الكلمة في اللغة 164، ودلالة الألفاظ 154.

2 يُنظر: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي, مكتبة دار التراث، القاهرة، ط3، (ج1: ص429).

3 يُنظر: **جدل اللفظ والمعنى**، د. مهدي أسعد عرار، دار وائل للنشر، عمان، ط1، /2005/, (ص141), والترادف في اللغة, حاكم مالك العتيبي الزيادي، دار الحرية، بغداد، /1400-1980/, (ص22).

4 يُنظر: أثر الدخيل على اللغة العربية الفصحى 336.

5 المفردات في غريب القرآن /ذرع/ 1: 236.

6 الحاشية 6: 154.

7 **ديوان زهير بن أبي سلمى**، تحقيق علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، /1408-1988/, (ص68).

إذن؛ تعميم الدلالة بانتقالها من خاصّة إلى عامّة إثراءٌ لمعاني الألفاظ، ومواكبةٌ للُّغة طريقَ التطوُّر، وهو مما لم يغفل الخفاجيُّ عنه, فقد أولاه جُلَّ اهتمامه؛ خدمةً للعربية وبيانًا لجدارتها.

وأمَّا تخصيص الدلالة (تضييق المعنى) فنقيض ما تقدَّم؛ إذ فيه تُحوَّل الدلالة من العامِّ إلى الخاصِّ, أو من الجزئيِّ إلى الكلِّيِّ, فيضيق المعنى بدلاً من أن يتوسَّع؛ لذا عُرِفَ في الدراسات الحديثة بـ(تضييق المعنى),[1] وأكثر ما يكون هذا المظهر في الألفاظ الشرعية التي صارت دلالاتها في الإسلام تختلف عما كانت عليه في الجاهلية, ولكنها لم تُوضع وَضْعًا جديدًا, وإنما جاءت على طريقة ما ألِفَهُ العربُ ووَسِعَتْهُ لُغَتُهُم مجازًا ونقلاً.

فكلمة (الجَهْدِ) التي لم تُعرف في الجاهلية إلا بمعنى التعب والمشقَّة,[2] أضفى عليها القرآن معنًى جديدًا حين أضافها إلى كلمة (الأيمان)؛ ليصير: جَهْدُ اليمين, أوْكَدَها وأغْلَظَها، ففي قوله I: **[أقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ إنَّهُمْ لَمَعَكُمْ]** [المائدة 53]، قال الخفاجيُّ: "(جَهْدُ يمِيْنِهِ) مُستَعارٌ من: جَهَدَ نَفْسَهُ, إذا بَلَغَ أقصى وُسْعِهَا، وذلك إذا بالغ في اليمين، وبَلَغَ غايةَ أشَدِّهَا وأوْكَدِهَا",[3] وكرَّر مثل هذا الكلام في تعليقه على قوله I: **[وأقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ]** [النور 53]، فقال: "هو مُستَعارٌ من: جَهَدَ نَفْسَهُ, إذ أُبْلِغَ وُسْعَهَا؛ أي أكَّدُوا الأيمان وشَدَّدُوْهَا".[4]

وكذا كلمة (الفاسق) لم تعرف منها العربُ من قبلُ إلاَّ قولَهم: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ؛ إذا خَرَجَتْ من قِشْرِهَا، وهذا ما تغيَّر في الإسلام, فقد صار لها معنًى لم يكن، ففي قوله I: **[أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ]** [السجدة 18]، قال الخفاجيُّ: "أصْلُ معنى (الفِسْقِ) الخروجُ؛ من: فَسَقَتِ الثمرةَ؛ إذا خَرَجَتْ من قِشْرِها,[5] ثم استُعمل في الخروج عن الطاعة وأحكام الشَّرْعِ مُطْلَقًا، فهو أعَمُّ من الكُفْرِ, وقد يُخَصُّ به؛ كما في قوله: [ومَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ] [النور 55], وكما هُنا لمِقابَلَتِه بالمؤمِن".[6]

---

1 يُنظر: دلالة الألفاظ 155.

2 يُنظر: المفردات في غريب القرآن /جهد/ 1: 131.

3 الحاشية 3: 493.

4 الحاشية 8: 186.

5 يُنظر: المفردات في غريب القرآن /فسق/ 2: 491.

6 الحاشية 7: 450.

وأمَّا نَقْلُ الدلالة (تغيير مجال استعمال الكلمة) فمظهرٌ يُعَدُّ من أهمِّ المصادر التي تُغني اللغة؛ لرحابة مجاله؛ فهو قائم على التَّخيُّل، وفيه يتساوى المعنيان الحقيقي والمجازي، وتنتقل دلالةُ الكلمات من محسوسة إلى معنوية, أو بالعكس, وهو أن "ينتقل اللفظُ من مجال دلالته إلى مجال دلالة أُخرى؛ لعلاقةٍ أو مُناسَبةٍ واضحة بين الدلالتين".[1]

وله صُوَرٌ ثلاثٌ؛ هي: الانتقالُ عن طريق المجاز، والانتقالُ عن طريق الاستعارة، والانتقالُ عن طريق الكناية, وقد عرض لها الخفاجيُّ مُوضِحًا الأصلَ اللغوي للَّفظة والدلالة الجديدة المنبثقة عنه.

الانتقال عن طريق المجاز: يُعَدُّ المجاز بابًا واسعًا من أبواب التطوُّر الدلالي، وله أثَرُهُ الكبير في مجرى هذا التطوُّر، ويتمُّ عن طريق انتقال اللفظ من معنى إلى آخر؛ بالاعتماد على مجموعة من العلاقات بين المدلولين، كالمجاورة والسببيّةِ والجزئيّةِ والكلِّيَّة, فالمجاز رُكْنٌ أساسٌ في اللغة العربية وليس عارضًا فيها، و"العربُ كثيرًا ما تستعمل المجاز, وتَعُدُّهُ من مفاخر كلامها، فإنّه دليل الفصاحة ورأس البلاغة, وبها بانت لغتها عن سائر اللغات".[2]

والمعنى الاصطلاحي للمجاز مُستمَدٌّ من المعنى اللغوي للكلمة، قال ابن جني في حدّ (الحقيقة) و(المجاز): "الحقيقةُ ما أُقِرَّ في الاستعمال على وضع اللغة، والمجازُ ما كان بضِدِّ ذلك",[3] فلمَّا كان استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي شبيهًا بالانتقال من موضع إلى آخر, فلا جَرَمَ أن سُمِّي (مجازًا)؛[4] إلاَّ أنَّ دلالة مصطلح (المجاز) اختلفت عند المفسِّرين والبلاغيين، إذ تعني كلمة (المجاز) عند أبي عبيدة /210هـ/ "الطريقةَ التي يسلكها القرآن في تعبيراته, وهي التفسير والتأويل وتوجيه الكلام",[5] وهذا المعنى أعمّ من المعنى الاصطلاحي لكلمة (المجاز).

وقد كرَّست حركة التطوُّر اللغوي المجاز؛ إذ يُعْمَدُ به إلى نَقْلِ الألفاظ من المعاني القديمة إلى المعاني الجديدة، وهو مرتبط بعوامل كثيرة لا سبيل إلى دفعها؛ لأن التطوّر اللغوي تَفْرِضُهُ حتميَّة تطوُّر الحياة في جوانبها كلِّها, وهذا عبد القاهر الجرجاني /474هـ/ يذكر أن الاعتبارات اللغوية تَتْبَعُ أحوال المخلوقين وعاداتهم وما يقتضيه ظاهرُ البِنْيَة وموضوع الجِبِلّة,[6] فكأن المجازات والتصوُّرات إنما هي نسيج الحياة والعادات.

---

1 الترادف في اللغة 24.

2 **العمدة** في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، /1401-1981/, (ج1: ص265).

3 الخصائص 2: 442.

4 يُنظر: **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، العلوي اليمني، تحقيق سيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف، مصر ، /1332-1914/, (ص63).

5 **مجاز القرآن**, أبو عبيدة، تحقيق د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ص18، 19).

6 يُنظر: **أسرار البلاغة**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة / جدة، (ص392).

والمجاز المرسَل ظاهرة مُتأصِّلة في القرآن الكريم, ومن أدلَّة إعجازه البياني, أدَّى باللغة إلى أن توسَّعت وأُغني معجمها الدلالي بدلالات مُتجدِّدة بديعة, وقد حدَّه القزويني /739هـ/ بقوله: "ما كانت العلاقة بين ما استُعمِل فيه وما وُضِعَ له؛ مُلابَسةً غيرَ التشبيه"؛[1] أي أن تكون الكلمة مُستعمَلة قَصْدًا في غير معناها الأصلي؛ لملاحظة علاقة غير المشابهة بين المعنيين، مع قرينة دالَّة على إرادة غير المعنى الأصلي.[2]

وقد تَوَسَّعَ البلاغيون في استخراج علاقات المجاز المرسَل، ومنها: الجزئيَّة، والكلِّيَّة، والسَّببيّة, والمسبَّبيَّة, والمحلِّيَّة، والحالِّيَّة,[3] وهي مما اهتمَّ بتفصيلها الخفاجيُّ كثيرًا في حاشيته؛ إذ أدرك كثرة المجاز في آي القرآن الكريم، فرَصَدَ هذه الظاهرة التي هي من أساسيات عَمَلِهِ, وفصَّل علاقاتها, وكان في تناوله إيَّاها بعيدًا عن البحث النظري، فما إن يلحظ أثرًا للمجاز في آية حتى يشرح أصْلَ المعنى؛ مُدركًا أنّ المجاز نتيجة حتمية لتطوُّر الدلالة.

فالجزئية أن يكون اللفظ جزءًا من المعنى المقصود، فيُسمَّى الشيء باسم جزئه, ومن أشهر أمثلتها لديهم تسمية الجاسوس (عينًا)؛ لأن عَيْنَهُ ـ التي هي جزءٌ منه ـ أداتُه في عَمَلِهِ.

ففي قوله I: **[وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ]** [النساء 328]، قال البيضاوي: "و(الرقبة) عُبِّرَ بها عن النَّسَمة، كما عُبِّرَ عنها بالرأس"، فقال الخفاجيُّ: "و(الرقبة) من التعبير بالجزء عن الكلِّ، و(النَّسَمة) بفتحتين للإنسان، وقيل إنها تكون بمعنى الرقيق، وهو المراد هنا، قال الراغب: إنها في المتعارف اسم للمماليك,[4] كما يُعبَّر بالرأس والظهر عن المركوب، فيُقال: فلان يربط كذا رأسًا وكذا ظهرًا".[5]

وفي قوله I: **[وَقُرْآنَ الفَجْرِ]** [الإسراء 78]، قال البيضاوي: "وصلاة الصبح، سُمِّيت (قرآنًا)؛ لأنه رُكْنُها, كما سُمِّيت (ركوعًا) و(سجودًا)"، فأتبع الخفاجيُّ: "يعني أنه من تسمية الكلّ باسم جزئه؛ لأنه رُكْنُها".[6]

والكلِّيَّة نقيض الجزئيَّة؛ أي أن يكون اللفظ مُتضمِّنًا المعنى المقصود وغيره, فهنا يُسمَّى الجزء باسم الكلِّ, ومن أمثلتها أن يُقال: شربتُ البحرَ؛ أي من مائه, لا كُلَّهُ.

---

1 **الإيضاح في علوم البلاغة**, الخطيب القزويني, دار إحياء العلوم, بيروت, ط4, /1998/, (ص254).

2 يُنظر: **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، السيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، ط1، /1999/, (ص232، 233).

3 يُنظر: **فنون بلاغية**، أحمد مطلوب، منشورات دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، /1395-1975/, (ص111-118).

4 يُنظر: المفردات في غريب القرآن /رقب/ 1: 265.

5 الحاشية 3: 329.

6 الحاشية 6: 92.

ونجده في حاشية الخفاجي مُفتتحِها؛ فقد ذَكَرَ البيضاوي أن سورة الفاتحة تُسمَّى (سورة الصلاة)، فعقَّب الخفاجيُّ: "كما تُسمَّى (سورة الصلاة) تُسمَّى (الصلاة) أيضًا، وهو من تسمية الجزء باسم كلّه، أو تسمية أحَدِ المتلازِمَين باسم الآخر".[1]

وفي قوله I: **[وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطَابِ]** [ص 20]، قال البيضاوي: "وفَصْلُ الخصام؛ بتمييز الحقِّ عن الباطل، أو الكلام المخلَص الذي يُنبِّه المخاطَب على المقصود من غير التِباس يُراعي فيه الفصلَ والوصلَ... وإنما سُمِّي به (أمَّا بَعْدُ)؛ لأنه يفصل المقصود عمَّا سَبَّقَ مُقدِّمُهُ له من الحمد والصلاة", فأتبع الخفاجيُّ: "قوله: (وإنما سُمِّي... إلخ)؛ إشارة إلى ما ذَكَرَهُ بَعْضُهُم من تفسيره (فَصْلَ الخطاب) بـ(أمَّا بَعْدُ)؛ بأنه ليس مُرادُه حَصْرَهُ فيه, بل إنه من جُملته؛ لأنه أكثرُ ما وَقَعَ في الخُطَبِ بَعْدَ الحمد والصلاة, فذُكِرَ ليفصل بين ما جُعِلَ غِرَّةً للكلام تيمُّنًا به، وبَيَّنَ المقصود منه, وهو ممَّا يقع في الكلام البليغ, فأُطْلِقَ عليه لوقوعه في كلامٍ فَصْلٍ؛ من باب إطلاق اسم الكُلِّ على جُزْئِهِ".[2]

والسَّببيَّة أن يكون اللفظ المذكور سببًا في المعنى المقصود؛ أي أن يُذْكَرَ السببُ ويُراد به المسبَّب، وقد ذَكَرَ الشوكانيُّ /1250هـ/ أنه يدخل في السببيَّة أربعة أنواع: القابل، والصورة، والفاعل، والغاية؛ أي تسمية الشيء باسم صورته؛ كتسمية القدرة باليد، وتسمية الشيء باسم فاعله حقيقةً أو ظنًّا؛ كتسمية المطر بالسماء والنبات بالغيث، وتسمية الشيء باسم غايته؛ كتسمية العنب بالخمر.[3]

ففي قوله I: **[عَلِمَ اللهُ أنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أنْفُسَكُمْ]** [البقرة 187]، قال البيضاوي شارحًا كلمة (تختانون): "تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظَّها من الثواب، و(الاختيان) أبلغُ من (الخيانة)"، فقال الخفاجيُّ: "الخيانة ضِدُّ الأمانة، ولما كانت خيانة النفس غير مُتصوَّرة جَعَلَها مجازًا عن الظلم وتنقيص الثواب",[4] أي إن كلمة (تختانون) استُعملت في غير دلالتها الأصلية، وعُبِّر بها عن الظلم وتنقيص الثواب، فسُمِّي المسبَّب باسم سَبَبِهِ.

---

1 الحاشية 1: 38.

2 الحاشية 7: 137.

3 يُنظر: **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، الشوكاني، تحقيق سامي بن العربي الأشري، دار الفضيلة، الرياض، ط1، /1421-2000/, (ص145).

4 الحاشية 2: 281.

وفي قوله I: **[وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ]** [يونس 100]، قال البيضاوي: "(الرِّجس) العذابُ أو الخذلانُ, فإنه سَبَبُهُ", فأضاف الخفاجيُّ: "أَصْلُ (الرِّجس) القذر، ثم نُقِلَ إلى العذاب؛ لاشتراكهما في الاستكراه والتنفُّر، ثم أُطلق على سَبَبِهِ, فهو مجاز في المرتبة الثانية".[1]

والمُسبَّبيَّة تتحقَّق بإطلاق اسم المسبَّب على السبب، بعكس السَّببيَّة, فإذا كانوا في السببيَّة ذكروا الغيث وأرادوا به النبات, فإنهم في المسببيَّة يذكرون النبات ويريدون الغيث.[2]

ففي قوله I: **[وإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ]** [البقرة 231]، قال البيضاوي: "والمعنى: فراجِعُوهُنَّ"، وقد أوضح الخفاجيُّ نَوْعَ المجاز بقوله: "يعني أنّ الإمساك مجازٌ عن المراجعة؛ لأنها سَبَبُهُ، والتّسريح بمعنى الإطلاق مجازٌ عن التَّرك".[3]

وفي قوله I: **[واعْلَمُوا أنَّمَا أمْوَالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ]** [الأنفال 28]، قال البيضاوي: "لأنّهم سَبَبُ الوقوع في الإثم والعقاب، أو محنةٌ من الله تعالى؛ ليبلوكم فيهم, فلا يحملنَّكم حُبُّهم على الخيانة"، فأتبع الخفاجيُّ: "قوله: (لأنهم سَبَبُ الوقوع... إلخ)؛ إشارة إلى معنى الفتنة كما مرَّ, فإنّه: إمَّا الإثم والعقاب, فتكون أُطلقت عليهم؛ لأنهم سَبَبُها, أو الاختبار, فالمعنى أن الله رَزَقَكُم الأموال والأولاد ليختبركم".[4]

والمحلِّيَّة أن يُطْلَق المحلُّ ويُراد الحالُّ فيه، فيُسمَّى الشيء باسم محلِّه, وذكروا لصحَّتها أن الانتقال من (النادي) إلى (أهله) في قوله I: **[فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ]** [العلق 17]، موجودٌ كثيرًا, فصَحَّ التجوُّز بهذا الاعتبار.[5]

ففي قوله I: **[وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلقِتَالِ]** [آل عمران 121]، قال الخفاجيُّ: "و(المقعد) و(المقام) محلُّ القعود والقيام، ثم تُوسِّعَ, فأُطلقا بطريق المجاز على المكان مُطلَقًا؛ وإن لم يكن فيه قيامٌ وقعودٌ، وقد يُطلق على مَنْ به؛ كقولهم: المجلسُ السامي والمقامُ الكريم".[6]

---

1 الحاشية 5: 107.

2 يُنظر: **التصوير البياني**, د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، /1993/, (ص348).

3 الحاشية 2: 542.

4 الحاشية 4: 463.

5 **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**، ابن يعقوب المغربي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ج4: ص41).

6 الحاشية 3: 118.

وفي قوله I: [**فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ**] [يونس 102]، ذكر الخفاجيُّ أن "أيام العرب استُعملت مجازًا مشهورًا في الوقائع من التّعبير بالزّمان عمَّا وَقَعَ فيه؛ كما يُقال: المغرب؛ للصلاة الواقعة فيه".[1]

والحالِّيَّة عَكْسُ المحلِّيَّة؛ إذ يُطلَقُ الحالُّ ويُرادُ المحلُّ، فيُسمَّى المكان باسم مَنْ حَلَّ فيه وكان ضِمْنَهُ.

ففي قوله I: [**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ**] [البقرة 3]، قال البيضاوي: "(الصلاة) فَعَلَةٌ من (صَلَّى)؛ إذا دعا، وإنما سُمِّي الفعل المخصوص بها؛ لاشتماله على الدعاء... وإنّما سُمِّي الداعي (مُصلِّيًا)؛ تشبيهًا له في تخشُّعه بالرَّاكع والسَّاجد"، فقال الخفاجيُّ: "وقوله: (لاشتماله على الدعاء), فهو من إطلاق الحالِّ على المحلِّ، وهو الظاهر, لا من إطلاق الجزء على الكُلِّ، وإن جاز, إن لم نَقُلْ بأنه مشروطٌ بأن يكون ممَّا يزول الكُلُّ بزواله كالرأس والرقبة",[2] وبعدما عَرَضَ معنى (صلَّى) قال: "فالصوابُ ما ذَهَبَ إليه الجمهور من أنّ لَفْظَ (الصلاة): حقيقةٌ في الدعاء, مجازٌ لغويٌّ في الهيئات المخصوصة المشتمِلة عليها",[3] ثم قال: "قوله: (وإنما سُمِّي الداعي... إلخ), هذا بِرُمَّتِهِ كلامُ (الكشَّاف),[4] وهو بيانٌ لِمَا في الواقع عِنْدَهُ من أنها في الدعاء استعارةٌ من الصلاة المشهورة, لا أصلٌ لها, وإطلاقها عليها مجازٌ من إطلاق الحالِّ على المحلّ, أو الجزء على الكُلِّ، وقد أُورِد عليهم أنهم اشترطوا فيه أن يعدم الكُلُّ بعدمه, وأن يكون الجزء مقصودًا من الكُلِّ، وأنه لا يصحُّ حينئذ إطلاقُه على صلاة الأخرس، وهو كلُّه مخالفٌ للواقع".[5]

وفي قوله I: [**وأمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ**] [آل عمران 107]، قال البيضاوي في تفسيره كلمة (رحمة): "يعني الجنَّة"، فعلَّق الخفاجيُّ: "قوله: (يعني الجنَّة... إلخ), جَعَلَ الرَّحمة بمعنى الجنَّة؛ من التعبير بالحالِّ عن المحلّ, والظرفية حقيقية، أو بمعنى الثواب, فالظرفية مجازية؛ كما هي في: نعيمٌ وعيشٌ رَغْدٌ؛ إشارة إلى كثرته وشموله له شمولَ الظرف، وأمَّا الرحمة التي هي صفة ذاتية فلا يصحُّ فيها الظرفية، ويدلُّ على هذا التفسير مُقابَلتها بالعذاب, ومُقارَنتها للخلود، وهذا مجازٌ نُكْتَتُهُ ما ذَكَرَهُ".[6]

---

1 الحاشية 5: 108.

2 الحاشية 1: 347.

3 الحاشية 1: 347.

4 يُنظر: **الكشاف**, الزمخشري، تحقيق جمعٍ من المحققين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، /1418-1998/, (ج1: ص155).

5 الحاشية 1: 350.

6 الحاشية 3: 107.

فهذه جملة من التطبيقات المجازية التي ساقها الخفاجيُّ في حاشيته, وهي مما يُشير في وضوح إلى حِرْصِهِ على البحث عن الأصل الدلالي وتطوُّره.

الانتقال عن طريق الاستعارة: يُعرف عن الاستعارة أنها لونٌ من ألوان التّصوير يُعبَّر من خلالها عن المعنى الذهني والحالة النفسية بالصورة المحسوسة، وهي نوعٌ من التطوُّر الدلالي يحصل بِنَقْلِ الألفاظ الموضوعة للدلالة على الأمور المادية المحسوسة لتُعبِّر عن الأمور المعنوية.

وهي حقيقةً نوعٌ من المجاز العقلي قائم على أساس المشابهة؛ لذا قال عنها الجاحظ /255هـ/: "هي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه",[1] "والعربُ تستعير الكلمة, فتضعُها مكان الكلمة إذا كان المسمَّى بها بِسَبَبٍ من الأُخرى, أو مُجاوِرًا لها, أو مُشاكِلاً",[2] فالاستعارةُ في مفهوم القدماء للَّفظةٍ مكانَ أُخرى؛ لعلاقة المشابهة بينهما.

وقد اهتمَّت الكتب البلاغية التي تحدَّثت عن الإعجاز القرآني بالاستعارة، وبيَّنت الميزة في استعمالها, وحلَّلت جمالية الآيات الواردة فيه, وهذا ما لم يغفل عنه الخفاجيُّ, فقد ساق في حاشيته جمعًا كبيرًا من أمثلة الاستعارة أداة للتطوُّر الدلالي في اللغة العربية.

ففي قوله I: [**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**] [النساء 138]، استعارة للَّفظ للتعبير عن ضدِّه, فقد قال البيضاوي: "ووَضْعُ (بشَّر) مكان (أنذر) تَهَكُّمٌ بهم"، فأضاف الخفاجيُّ: "وكون (بشَّر) استعارة تهكمية هو المشهور، وقوله: (مكان أنذر), أحسن من قول الزمخشريّ: (مكان أخبر)؛ لأنّ التهكُّمية تكون في استعارة الضِّدِّ لضِدِّه، والإخبارُ ليس ضِدًّا له؛ لأنه أعمُّ، ولك أن تقول إنّه مجاز مُرسَل, فهو وَجْهٌ آخَرُ في التَّهكُّم".[3]

فكلمة (البشارة) في أصْلِها تعني الإخبار بما يسرُّ، "يُقال: أبْشَرْتُ الرَّجُلَ وبَشَّرْتُهُ وبَشَرْتُهُ؛ إذا أخبرتُه بسارٍّ بَسَطَ بشرة وَجْهِهِ، وذلك أن النفس إذا سُرَّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر",[4] لكنها استُعملت ههنا بمعناها المجازي؛ إذ عبَّرت عن نزول العذاب، فجاءت للسخرية والتهكُّم، وما ذاك إلا لأن المنافقين أوهموا المؤمنين بأنهم آمنوا في الظاهر, وهم كفروا في السِّرِّ، فجيء بلفظ (البشارة)؛ إيهامًا لهم بشيءٍ, ثم مفاجأتهم بالعذاب الأليم.

---

1 يُنظر: **البيان والتبيين**, الجاحظ، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، /1418-1998/, (ج1: ص153).

2 **تأويل مشكل القرآن**, ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، /1393-1973م/, (ص135).

3 الحاشية 3: 374.

4 يُنظر: المفردات في غريب القرآن /بشر/ 1: 61.

ومن أبرز الأمثلة الاستعارية كلمة (عقيم), ففي قوله I: **[حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ]** [الحج 55]، يرى الخفاجيُّ أن "حقيقة العقم عَدَمُ الولادة لمن هو من شأنه، واليوم ليس كذلك, فجَعَلَهُ عقيمًا؛ مجازًا ما في الطرف أو الإسناد؛ بأن يُراد بالعقم الشكلُ استعارةً، وعليه اقتصر المِصنِّف,[1] أو مجازاً مُرسَلاً؛ بإرادة عَدَمِ الولد مُطلَقًا, وإسناده إلى اليوم مجازٌ؛ لأنه صفةُ من هو فيه من النساء, وهذا سمَّاه أَهْلُ المعاني (المجاز الموجَّه)؛ من قولهم: ثَوْبٌ مُوَجَّهٌ",[2] ومثله قوله I: **[وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ]** [الذاريات 41]، فقد قال الخفاجيُّ: "يعني أنّ (العقيم) مُستعارٌ استعارة تبعية لِمَا ذَكَرَ؛ بتشبيه ما في الريح ممَّا ذَكَرَ بما في المرأة مما يمنع حَمْلَهَا؛ لأنّ أصْلَ (العقم) اليبس المانع من قبول الأثر, كما قاله الراغب,[3] وهو: فَعِيْلٌ, بمعنى: فَاعِلٍ, أو: مَفْعُوْلٍ؛ كما مَرَّ، فلمَّا أهلكتهم وقَطَعَتْ بالاستئصال نَسْلَهُم؛ شَبَّهَ ذلك الإهلاك بِعَدَمِ الحمل؛ لِمَا فيه من إذهاب النسل، وهذا هو المراد هنا، وأمَّا قوله: (أو لأنها لم تتضمَّن منفعة)؛ فبيانُ معنًى مجازي آخَرَ للريح العقيم، وهي التي لا تلقح الشجر بِزَهْرٍ وثَمَرٍ, لا أنه مُرادٌ هنا؛ إذ لا يصحُّ أن يُقال: المرادُ: أرسلنا عليهم ريحًا لا نَفْعَ فيها, فَشُبِّهَ عَدَمُ تضمُّن المنفعة بعُقْمِ المرأة، وهو ظاهرٌ, فهو بمعنى: فَاعِلٍ, من اللازم".[4]

ومن الألفاظ التي تحوَّلت دلالتها لوجود تشابُهٍ بين المدلولين كلمة (طغى) في قوله I: **[إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ]** [الحاقة 11]؛ قال البيضاوي: "جاوز حَدَّهُ المعتاد، أو طغى على خزَّانه, وذلك في الطوفان"، فقال الخفاجيُّ: "وطغيانه على خزَّانه على أنه استعارة، ولا وَجْهَ لكونه حقيقةً إلا بتكلُّف ما لا حاجة إليه، والفرقُ بين الوجهين أن تجاوُز الحدِّ قد يكون بالنسبة للغير, وقد لا يكون, مع الاشتراك في الاستعارة، والمستعارُ منه تجاوُز المرء حَدَّهُ, والمستعارُ له كثرةُ الماء، ويجوز كونُهُ تمثيلاً",[5] فالخفاجيُّ يشرح انتقال الدلالة لكلمة (طغى) التي تُطْلَقُ في اللغة على تجاوُز الحدِّ؛[6] إلى الدلالة على تجاوُز الماء الحدَّ المألوف, فكان هذا كالطغيان المعنوي الذي يكمن في نَفْسِ الإنسان الظالم، وقد استُعيرت الكلمة للإيحاء بالعذاب الشديد الذي حَلَّ بقوم نوح ε.

1 أي البيضاوي في تفسيره.

2 الحاشية 6: 536.

3 يُنظر: المفردات في غريب القرآن /عقم/ 2: 445.

4 الحاشية 8: 599.

5 الحاشية 9: 253، 254.

6 يُنظر: المفردات في غريب القرآن /طغى/ 2: 397.

وكذا كان وقوف الخفاجيِّ عند الآيات التي تحتمل معنى الاستعارة، يعمد إلى إظهار المعنى الحقيقي أولاً ما أمكنه ذلك، ثم يشرع في بيان المعاني المجازية الجديدة؛ ليفي كُلَّ آيةٍ حَقَّهَا من الشرح والتوضيح؛ لإدراكه أهمية هذا النوع من المجاز، ساعيًا إلى تقريب المجاز من أفهام القارئين.

الانتقال عن طريق الكناية: الكنايةُ كلامٌ اسْتَتَرَ وإن كان معناه ظاهرًا في اللغة,[1] وهي "أن يُريد المتكلِّم إثبات معنًى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنًى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود, فيُومئ به إليه, ويجعله دليلاً عليه",[2] وأسلوبها يختلف عن أسلوب المجاز من حيث القرينة؛ في أن الأخير يشتمل على قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي، أما القرينة في أسلوب الكناية فلا تمنع منها؛ لذا كانت أبلغ من التصريح, فالهدف منها أن ينأى المتكلِّم عن المباشرة والصراحة في القول إلى ما يُبعده عن الرتابة التي تنشأ من طول استعمال اللفظ في معانٍ محدّدة مألوفة.

وقد حَفِلَ القرآن الكريم بكثير من الألفاظ المنقولة على هذه الصورة، وهي مما وَقَفَ الخفاجيُّ في حاشيته عليها مُوضِحًا وشارحًا هذا النوع من الانتقال الدلالي على سبيل الاتساع.

ففي قوله I: **[أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ]** [البقرة 187]، شَرَحَ الخفاجيُّ كلمة (الرفث) بقوله: "(الرفث) كلامٌ مُتضمِّن لما يُستقبح ذِكْرُهُ من ذِكْرِ الجماع ودواعيه، وهو هنا كناية عن الجماع، ولم يُجعل مجازًا لعدم المانع من الحقيقة، وعُدِّي بـ(إلى) لتضمُّن معنى الإفضاء... ووَجْهُ دلالته على معنى القُبح من جهة أنه الإفصاح بما يجب أن يُكنَّى عنه, فذُكِرَ لتقبيح ما فعلوه, ولذا سمَّاه (خيانة) في قوله: [كُنتُمْ تَخْتانُونَ]؛ بَعْدَهُ, فلم يقل: أفضيتم, أو: باشرتم, أو نحوه؛ كما في أمثاله، فإن قيل: لِمَ لا يُجعل من أوَّل الأمر كنايةً عن الإفضاء؛ كما في الأساس؟ قيل: لأن المقصود هو الجماع, والإفضاء أيضًا كنايةٌ عنه"، وأكَّد الخفاجيُّ الكناية في لفظ (الرفث) في الكلام على قوله I: **[فَمَنْ فَرَضَ فِيْهِنَّ الحَجَّ فَلا رَفَثَ]** [البقرة 197]، فقد قال البيضاوي: "فلا جماع، أو فلا فُحْشَ في الكلام"، فعقّب الخفاجيُّ: "وهو على الأول كنايةٌ، وعلى الثاني حقيقةٌ".[3]

---

1 يُنظر: **التعريفات**, السيد الجرجاني، محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (ص213).

2 **دلائل الإعجاز**, عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ص66).

3 الحاشية 2: 490.

وفي قوله I: **[وَقَالَتِ اليَهُوْدُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ]** [المائدة 64]، قال الخفاجيُّ: "أي بخيلٌ يُضيِّق الرزق، وغَلُّ اليد وبَسْطُها مجازٌ عن البخل والجود, يعني فيمن لا تصحُّ منه الحقيقة أصلاً؛ كما هنا, بخلاف: يَدُ زَيْدٍ مغلولةٌ أو مبسوطةٌ, فإنه كناية عن ذلك... وقوله: (ولذلك يُستعمل... إلخ), يقتضي أنه يُتصوَّر منه ذلك مجازًا مع أنه كناية, فيُحمل على ما إذا كان ثمة قرينة مانعة".[1]

وقد وردت كلمة (الأكل) في صيغٍ ومعانٍ مُختلِفة، كُلٌّ بحسب السياق الذي وُضعت فيه؛ كما في قوله I: **[ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أيُحِبُّ أحَدُكُمْ أنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتًا]** [الحجرات 12]، وهنا قال الخفاجيُّ: "كَنَّى عن (الغيبة) بأَكْلِ الإنسان لِلَحْمِ إنسان آخَرَ مِثْلِهِ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جَعَلَهُ مَيْتًا، ثم جَعَلَ ما هو في غاية الكراهة موصولاً بالمحبة, فهذه أربعة أمور دالَّة على ما قُصِدَ له؛ مُطابَقةً للمعنى الوارد من أجله، فأمَّا جَعْلُ الغيبة كأَكْلِ لَحْمِ إنسان مِثْلِهِ فلأنها ذِكْرُ المثالب وتمزيق الأعراض المماثِل لأكْلِ اللحم بعد تمزيقه, وجَعْلُهُ كَلَحْمِ الأخ لأن العقل والشرع اسْتَكْرَهَاهَا وأمَرَا بتَرْكِهَا, فكانت في الكراهة الشديدة كَلَحْمِ الأخ, وجَعْلُهُ مَيْتًا لأن المغْتاب لا يشعر بغيبته، ووَصْلُهُ بالمحبة لِمَا جُبِلَتْ عليه النفوس من الميل إليها مع العلم بقُبْحِهَا".[2]

خاتمة:

تِلْكُم كانت أبرز مظاهر التأصيل والتطوُّر الدلاليين المرتبطة بالبيان القرآني بخاصة, وهي غيضٌ من فَيْضٍ ما تناوَله الخفاجيُّ, مما يُظهر عنايته الواضحة بهذا المبحث, ولعلَّه كان مطلبه الأول في حاشيته, على أنه في تناوُله لم يكن يقصد إلى التقعيد والتنظير, وإنما سعى إلى الكشف عن الجانب التطبيقي فيه, ممَّا يُكسب حاشيته مكانة مُبرَّزة في إطار وَضْعِ المعجم التاريخي للُّغة العربية, ولا سيما أنه توفَّر لهذه اللغة ما لم يتوفَّر لغيرها من اللغات؛ إذ ارتبطت بالقرآن الكريم, وبها كُتبت العلوم الإسلامية التي كان محورها, ومن ثم تهيَّأ للعربية أن يُصيبها . وسيُصيبها . كثيرٌ من التطوُّر على مدى أربعة عشر قرنًا, وفي ثنايا (عناية القاضي وكفاية الراضي) ما يُؤكِّد هذا.

---

1 الحاشية 3: 508.

2 الحاشية 8: 562.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، د. مسعود البوبو، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، /1982/.

أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني /474هـ/، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة / جدة.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم, أبو السعود /982هـ/، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني /1250هـ/، سامي بن العربي الأشري، دار الفضيلة، الرياض، ط1، /1421-2000/.

الإيضاح في علوم البلاغة, الخطيب القزويني /739هـ/, دار إحياء العلوم, بيروت, ط4, /1998/.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي /911هـ/، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، دمشق، ط2، /1399-1979/.

البيان والتبيين، الجاحظ /255هـ/، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، /1418-1998/.

تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة /276هـ/، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط2، /1393-1973/.

الترادف في اللغة، حاكم مالك العتيبي الزيادي، دار الحرية، بغداد، /1400-1980/.

التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، /1993/.

التعريفات، السيد الجرجاني /816هـ/، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة.

جدل اللفظ والمعنى، د. مهدي أسعد عرار، دار وائل للنشر، عمان، ط1، /2005/.

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، ط1، /1999/.

الخصائص، ابن جني /392هـ/، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية.

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبِّي /1111هـ/، المطبعة الوهبية، /1284هـ/.

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني /474هـ/، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، /1984/.

دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال بشر، مكتبة الشباب، مصر.

ديوان زهير بن أبي سلمى /13 ق.هـ/، تحقيق علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، /1408-1988/.

ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط1، /1425-2004/.

ريحانة الألبَّا وزهرة الحياة الدنيا، الخفاجي /1069هـ/، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، /1386-1967/.

طبقات الشافعية الكبرى، السُّبكي /441هـ/، تحقيق: محمود محمد الطناحي, وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

طبقات المفسرين، الأدنه وي /القرن الحادي عشر/، سليمان صالح الخزي، مكتبة العلوم والحِكَم، المدينة المنورة، ط1، /1417-1997/.

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي اليمني /749هـ/، تحقيق سيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف، مصر ، /1332-1914/.

علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط5، /1998/.

علم الدلالة والمعجم العربي، تحقيق: د. عبد القادر أبو شريفة, وحسين لافي, وداود غطاشة، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، /1409-1989/.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني /546هـ/، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، /1401-1981/.

عناية القاضي وكفاية الراضي = حاشية الخفاجي /1069هـ/، ضبطه عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، /1417-1997/.

الفتح المبين في طبقات الأصوليين، عبد الله مصطفى المراغي، مطبعة أنصار السنة المحمدية، /1366-1947/.

فنون بلاغية، أحمد مطلوب، منشورات دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، /1395-1975/.

الكشاف، الزمخشري /538هـ/، تحقيق جمعٍ من المحققين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، /1418-1998/.

لسان العرب، ابن منظور /711هـ/، تحقيق جمعٍ من المحققين، دار المعارف، القاهرة.

مجاز القرآن، أبو عبيدة /210هـ/، تحقيق د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي /911هـ/، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك, ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي, مكتبة دار التراث، القاهرة، ط3.

المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني /502هـ/، مكتبة نزار مصطفى الباز.

مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي /1168هـ/، دار الكتب العلمية، بيروت.